

دور آل كوبرلو في إصلاح أوضاع الدولة العثمانية (١٦٥٦ - ١٧٠٢م)

م.د. نسيبة عبد العزيز الحاج علاوي
كلية الآداب - جامعة الموصل

المؤتمر العلمي السنوي الأول لكلية التربية الأساسية (٢٣-٢٤/أيار/٢٠٠٧)

ملخص البحث :

بذل آل كوبرلو جهداً في إيقاف عوامل الانحلال في الدولة العثمانية حيناً من الزمن ، عندما تولى محمد كوبرلو وبنائه الصدارة العظمى في الدولة العثمانية في وقت كانت الدولة تعيش فيه ظروفاً داخلية وخارجية بالغة الصعوبة ، فقد تولى عرش آل عثمان السلطان محمد الرابع (١٦٤٨ . ١٦٨٧) ولم يتجاوز عمره سبع سنوات فأصبحت جدته السلطانة (ماه بيكر) نائبة للسلطنة التي كانت لها سلطات واسعة إلى جانب تحالفها مع القوة الأهم في الدولة وهي القوة الانكشارية ، مما جعل الدولة عرضة للتقلبات السياسية والحربية ، وكان نتيجة ذلك أن لحقت الهزائم بالأسطول العثماني أمام أسطول البندقية الذي احتل جزر عثمانية في البحر المتوسط ، كما واجهت الدولة تمردات الفرسان (السباهية) ، فضلاً عن اشتداد الخلافات بين السلطانة (ماه بيكر) جدة السلطان محمد الرابع ووالدته السلطانة (خديجة تارخان) على نيابة السلطنة ، إذ أرادت الجدة قتل حفيدها السلطان محمد الرابع لابعاد والدته خديجة تارخان عن نيابة السلطنة ، فاكشفت خديجة تارخان المؤامرة فدبرت مؤامرة مضادة قتلت فيها السلطانة (ماه بيكر) في سنة ١٦٥١م ليحسم الصراع لصالح خديجة تارخان ، كما اضطرت أحوال الأناضول نتيجة الثورات المستمرة فيها بسبب الأوضاع الاقتصادية المتردية في البلاد ، فاختل النظام وتأزم الوضع حتى أصبحت الدولة في مهب الريح ، ولم ينقذها مؤقتاً سوى الجهود التي بذلتها أسرة كوبرلو .

أمام هذه الأوضاع المتردية للدولة أسندت خديجة تارخان الصدارة العظمى إلى محمد باشا كوبرلو الذي تعهد لها بقمع الفساد الداخلي وفتح المضايق وإنقاذ استانبول ، وفي المقابل اشترط على السلطانة خديجة تارخان أن يكون مستقلاً في إدارته للدولة ، وأن تطلق يده في اختيار شاغلي المناصب الحكومية ومنحه سلطات واسعة، وعدم الاستماع إلى الوشايات ضده، فوافقت السلطانة على تلك الشروط ، كما أنها انسحبت من الحياة السياسية للدولة على الرغم من كفاءتها وذكائها ، لاسيما أنها شخصت الأضرار التي تكبدتها الدولة بسبب تدخل والده زوجها (ماه بيكر) في السياسة وعملت كل ما بوسعها لمنع تدخل نساء السراي في السياسة ،

ويانسحابها من السياسة انتهى الدور المسمى (سلطنة النساء) ليبدأ دور آل كوبرلو (١٦٥٦ .
 ١٧٠٢م) الذين انتهجوا سياسة إصلاحية هدفت إلى انتشار الدولة العثمانية من أوضاعها
 المتردية ، وكان لعميد هذه الأسرة ممد باشا كوبرلو دوراً كبيراً في هذا الإصلاح ، إذ أثبت أنه
 رجل مرّ بتجارب كثيرة وخبر أمور الدهر وصدّماته ، وكسب معرفة في فن الإدارة والسياسة ،
 فقام هو وأبناءه بأعباء الدولة خير قيام ، واستأصلوا المفاسد من الجيش والحكومة، وبذلك أنقذوا
 الدولة وأوقفوا عوامل الانحلال لمدة نصف قرن.

Kuperlus Family Made Every Effort to Reform Ottoman State (1656-1702)

Lecturer

Dr. Nosaeba A. Al-Haj Allawy

College of Art -University of Mosul

Abstract:

Kuperlus Family made every effort to reform ottoman state (1656-1702) , which helped to stop the weakness of the state for atime . Mohammed pash kuperlu has taken the first place in the ottoman state , which lives a very difficult circumstance on the internal and external standard .

So that he did his best in the stats functions, put an end to the corruptions in the state, made massive reforms in different fields of state especially the military constitute. He also worked together with the sultana khadijah Tarkhan to terminate the women's power and their continuos intrusions in the state, which made it reaches its fall.

His sons who descends him in the first place , able to continue his reformatory direction , Despite , some cessation in the reformatory process especially when the persons who had taken the first place weren't like their ability which made the reformatory process Late and reduced its advantage .

تمهيد

تولى السلطنة محمد الرابع (١٦٤٨-١٦٨٧م) ابن إبراهيم ولم يتجاوز من العمر سبع سنوات ، فأصبحت جدته السلطنة (ماه بيكر) نائبة السلطنة ، وكانت لها سلطات واسعة إلى جانب الإنكشارية^(١)، مما جعل الدولة عرضة للتقلبات السياسية والحربية وكان نتيجة ذلك أن لحقت الهزائم بالأسطول العثماني أمام أسطول البندقية الذي احتل بوزجه اطه ولمنوس، خارج المضائق العثمانية^(٢).

وفي الداخل واجهت الدولة العثمانية تمردات قوات الفرسان (السباهية) الذين تجمعوا للحصول على الهبات بمناسبة جلوس السلطان محمد الرابع واستغلوا فرصة وجودهم في استانبول للمطالبة برأس الصدر الأعظم صوفي محمد باشا (١٦٤٨-١٦٤٩م) وشيخ الإسلام عبد الرحيم أفندي^(٣) ، ولما كان الصدر الأعظم متفقاً مع الإنكشارية تمكن من التتكيل بالسباهية وقتل في سنة ١٠٥٨هـ/١٦٤٨م حوالي (٣٠٠) شخصاً^(٤)، إلا أنّ الاضطرابات لم تهدأ لأن العلاقة ساءت بين الصدر الأعظم والإنكشارية وأدت إلى تبدلات عديدة في الصدور العظام ، مما أدى إلى إرباك أمور الدولة^(٥).

كما اشتدت الخلافات بين السلطانه كوسم (ماه بيكر) جدة السلطان محمد الرابع ، ووالدته السلطنة خديجة تارخان على نيابة السلطنة ، فقد أرادت السلطنة (ماه بيكر) كسر شوكة السلطنة تارخان والدة السلطان محمد الرابع من خلال قتل حفيدها السلطان الذي لم يكمل بعد الـ (١٠) سنوات وإحلال ولي العهد الأمير سليمان من أم أخرى ، إلا أنّ السلطنة تارخان اكتشفت المؤامرة ، مما أدى إلى قتل السلطنة (ماه بيكر) في ١٦٥١م فحسم الصراع لصالح خديجة تارخان^(٦).

وفي الوقت نفسه كانت الأحوال مضطربة في الأناضول ، فقد ثار برير علي في سيواس عام ١٠٥٧هـ/١٦٤٧م وفي عام ١٠٥٩هـ/١٦٤٩م قامت ثورة قادها رجلان أحدهما يدعى قاطرجي اوغلي والثاني كورجي يني واستطاعا أن يتغلبا على والي الأناضول أحمد باشا ثم وقع الخلاف بينهما فقتل (قاطرجي اوغلي) (كورجي يني) ونال لقاء ذلك العفو وعين والياً على قرمان ، ثم توالى الثورات في البلاد واختل النظام وتأزم الوضع حتى أصبحت الدولة في مهيب الريح^(٧)، ولم ينقذها مؤقتاً سوى الجهود التي بذلتها أسرة كوبرلو^(٨).

- تسلم محمد باشا كوبرلو الصدارة العظمى

كانت والدة السلطان محمد الرابع خديجة تارخان ، قلقة بسبب الظروف التي تمر بها الدولة ، وكانت تبحث عن شخص مناسب وقادر على إخراج الدولة من هذا المأزق ، وقد فالتقت بالكثير من الباشوات الذين أدركوا خطورة الوضع لذلك لم يتعهدوا لها بإنقاذ الموقف، وحده محمد

باشا كوبرلو الذي تعهد لها بقمع الفساد الداخلي وفتح المضائق وإنقاذ استانبول ومساعدة العساكر في كريت^(٩)، وفعلاً استطاع هو ومن بعده أبنائه ، أن يقودوا الدولة بنجاح لما يقرب من الخمسين سنة^(١٠)، ويذكر أن رئيس المعماريين في القصر قاسم آغا هو الذي أوصى والدة السلطان باختيار محمد باشا كوبرلو نظراً لاقتداره وكفاءته^(١١)، وبسبب هذا التوجيه قام الصدر الأعظم حينئذٍ كورجي محمد باشا بعزل معمار قاسم آغا ومصادرة أمواله ونفيه إلى قبرص ، إلا أن قاسم آغا استطاع العودة إلى استانبول بعد أن حصل على عفو من السلطان محمد الرابع ورتب الأمور مع بعض شخصيات الدولة والدة السلطان لتولية محمد كوبرلو الصدارة العظمى^(١٢).

وبتولي محمد كوبرلو انسحبت السلطنة الوالدة تارخان من الحياة السياسية للدولة، على الرغم من أنها لا تقل ذكاءً عن والدة زوجها السلطنة كوسم (ماه بيكر) لكنها لم تصرف ذكاءها مثلها في الشر والأمور الشخصية بل صرفتها إلى الخير وفي صالح الدولة، شخّصت الأضرار التي تكبدتها الدولة بسبب تدخل والدة زوجها في السياسة وعملت كل ما بوسعها لمنع تدخل نساء السراي في السياسة^(١٣)، رغم أنها قضت خمس سنوات و(١٢) يوماً في منصب نيابة السلطنة ، وقد كان عمرها في ذلك الحين (٢٩) سنة ، إلا أن صفتها (السلطنة الوالدة) استمرت (٢٤) سنة و(١٠) أشهر وهي أطول مدة لصفة السلطنة الوالدة في التاريخ العثماني^(١٤).

وبانسحابها انتهى الدور المسمى في التاريخ العثماني (حريم سلطنتي) أي سلطنة النساء والتي كانت تظهر بين فترة وأخرى خلال الفترة الزمنية المنحصرة بين عهد السلطنة خرم (روكسلانه) زوجة السلطان سليمان القانوني وعام ١٦٥٦م تاريخ انسحاب السلطنة تارخان من النيابة^(١٥)، ويبدأ دور آل كوبرلو في التاريخ العثماني بين ، الذين انتهجوا سياسة إصلاحية هدفت إلى انتشال الدولة العثمانية من أوضاعها المتردية ، ومن الجدير بالذكر أن وزراء هذه الأسرة قد تأثروا إلى حد بعيد بالأفكار التي طرحها قوجي بك والتي دعا فيها إلى العودة إلى النظم العثمانية القديمة لمعالجة الخلل ، وأمن آل كوبرلو بهذه الأفكار فانتعشت الدولة إلى حين لكنها عادت واستغرقت في نومها العميق^(١٦)، إذ لم يتوفر لها بعد عائلة كوبرلو من يقوم بالإصلاح في ذلك الاتجاه التقليدي ، فقد شهد القرن الثامن عشر توجهاً للإصلاح على أساس أوربي.

إنّ أول من تولى منصب الصدارة العظمى من هذه الأسرة هو محمد باشا كوبرلو (١٦٥٦-١٦٦١م) ، الذي ولد في قرية (وزير كوبريسي) في سنجق أماسيا في الأناضول عام (١٥٨٣هـ/١٥٨٣م) وهو الباني الأصل بإجماع أغلب المؤرخين ، والده من الارناؤوط (البانيا) إلا أنه استقر في قرية (وزير كوبريسي)^(١٧)، ثم انتقل إلى استانبول وانتسب إلى السراي ، وكان أحد أفراد ضريبة الغلمان (الدوشرمه) لكنه لم يلبث أن انتقل من الخدمة الدنيا في البلاط إلى خدمة

الدولة^(١٨)، فقد عمل أول الأمر في دائرة المطبخ لبعض الوقت ، إذ كان طباًخاً في سراي السلطان وبقي يترقى في المناصب ، ويذكر أنه التحق بالخدمة العسكرية بقوة حراسة قرية وزيركوبريسي التي اتخذ منها اسمه^(١٩)، كما عمل لدى الصدر الأعظم خسرو باشا في عهد السلطان مراد الرابع بصفة (خزينة دار) ثم تقدم وترقى شيئاً فشيئاً^(٢٠).

تقلد محمد باشا كوبرلو عدداً من الوظائف الإدارية ، فقد أصبح والياً على دمشق وطرابلس والشام ، ليعود بعد ذلك إلى العاصمة ليكون وزير قبه^(٢١)، وبعد أن تولى زمام الأمور في الدولة العثمانية عام ١٠٦٧هـ/١٦٥٦م انتهج سياسة إصلاحية رصينة سار فيها على نهج السلطان مراد الرابع ، فقد اقتدى بشخصيته لكنه لم تكن لديه الثقة العالية التي كانت لدى السلطان مراد الرابع، وتمكن من تطبيق سياسة الشدة التي اشتهر بها مراد الرابع فحسب، وكان قد تولى زمام الأمور بعد أن بلغ من العمر سبعين سنة^(٢٢)، ولم يكن حتى ذلك الحين معروفاً لدى الدولة ، كما كان تحصيله العلمي قليلاً ، فلم يكن يعرف القراءة والكتابة^(٢٣)، فضلاً عن أن إمكانياته المالية ضعيفة بل يقال انه لم يكن موفقاً في ماضيه العسكري ، فقد سبق تكليفه في قيادة حملة تأديبية في الأناضول ضد والي سيواس علي باشا ، لكنه فشل بل سقط أسيراً في يده ولهذا فان تعيينه لمنصب الصدارة العظمى لم يلاق استحساناً من جانب العلماء ولا العسكر ، واعتقدوا أنه سيبقى في المنصب لبعض الوقت مثل أسلافه من الصدور العظام^(٢٤)، إلا أنه أثبت قدرة ودهاءً وتمكن من إنقاذ الدولة من شفا هاوية حتى أن بعض المؤرخين شبه عهد آل كوبرلو بعهد القانوني ، وعدّ آخرون أن تولي محمد باشا كوبرلو للصدارة العظمى مؤشراً على بدء النهضة في الدولة العثمانية^(٢٥).

وبما أن أعمال الصدر الأعظم كانت تتعرقل بسبب تدخلات مراكز النفوذ في الدولة المتمثلة بالقصر السلطاني والإنكشارية ، فقد اشترط محمد كوبرلو قبل أن يوافق على تولي الأمور عدة شروط منها أن يكون مستقلاً في إدارته للدولة ، وان تطلق يده في اختيار شاغلي المناصب الحكومية ومنحه سلطات واسعة في الضرب على أيدي أعداء الدولة في الداخل والخارج على السواء وعدم الاستماع إلى الوشائيات التي يروجها المرجفون ابتغاء النيل من تصرفاته ، وأن تنفذ كل طلباته التي يقدمها إلى السلطان وعدم الإلحاح عليه في مسألة تعيين أي شخص في مناصب الدولة^(٢٦).

وقد دهشت نائبة السلطنة عندما وضع الوزير الكهل شروطاً لقبوله الصدارة ، إذ لم يسبق في النظام العثماني أن يقدم وزيراً شروطاً لقبوله الصدارة ، وقد تمكن الوزير الكهل من إقناع نائبة السلطنة بأنه سوف لن يتمكن من أداء الخدمات المنتظرة للدولة إذا ما تولى منصب الصدارة العظمى دون أن يعطى صلاحيات مطلقة^(٢٧).

حكم كوبرلو البلاد بيد من حديد ، وأثبت أنه رجل مرّ بتجارب كثيرة وخبرَ أمور الدهر وصدقاته وكسب معرفة في فن الإدارة السياسية^(٢٨)، وأول ما بدأ عمله عزل الشخص الذي كان سبب توليته الصدارة العظمى وهو (معمار قاسم آغا) ونفاه إلى قبرص وقال كوبرلو: " من قدر على التولية قدر على العزل"^(٢٩)، وقد استعمل أسلوب التهريب لأخافة أعدائه^(٣٠)، فكانت أولى إجراءاته قتل الأشخاص الذين كانوا وراء الخلل والاضطراب في الدولة ونفيهم^(٣١).

وحيثما بدأ رجال القصر بعد فترة قصيرة من توليه الصدارة العظمى بالتدخل في شؤون الحكومة قام محمد كوبرلو بإحالة الشخص الذي يقف على رأس هؤلاء ويمارس نفوذاً على السلطان وهو خليل آغا على التقاعد، وعين بدلاً منه آغا سراي غلطة المدعو صفر آغا، وبعد ذلك استدعى احمد باشا أباطه المسؤول عن خسارة جزيرة (بوزجه) Bozcaada -والتي احتلها البنادقة- إلى استانبول وقام بإعدامه ، ونظراً لإعدام احمد باشا وهو من المقربين للسلطانة الوالدة ، أخذ رجال البلاط يعملون سراً على التخطيط لعزله^(٣٢)، كما انه أبعد العديد من المشايخ والدرويش المتزمتين ، وكان هؤلاء قد أثاروا المشاكل للدولة ، وتمكن محمد كوبرلو بمساعدة بعض العلماء من عرض الأمر على السلطان وأفلح في الحصول على أمر بإعدام المفسدين منهم ، إلا أنه لم يقد بإعدامهم بل نفاهم إلى قبرص ، كما أنه ضيق الخناق على المتشددين وتبنى نظام المبادأة ، فكان كلما تحصل فتنة أو تمرد ينظر فيه مباشرة وبسرعة يقوم بإجراء ما يقتضيه الأمر^(٣٣).

وكان رجال البلاط الحانقون على محمد كوبرلو قد أثاروا له مشاكل عديدة ليثبتوا عجزه عن إدارة شؤون الدولة ، وأخذوا يعملون سراً على التخطيط لعزله وقرروا تنصيب قبطان البحر (سيدي احمد باشا) صدراً عظماً وحصلوا على وعد منه بذلك ، إلا أن كوبرلو علم بالأمر فأسرع بتعيين (سيدي احمد باشا) والياً على البوسنة ليعده عن استانبول^(٣٤)، وكان ذلك في كانون الأول ١٦٥٦م ، وعين محله والي طمشوار السابق محمد طوبال باشا^(٣٥)، كما تمرد السباهية (الفرسان) الذين أثاروا الفساد وطالبوا بإعطاء الصدارة العظمى للقبودان (سيدي احمد باشا) وبحجة عدم أخذ الرواتب قاموا بقذف بيت الدفتردار محمد باشا ديغركلي بالحجارة ، فهرب الدفتردار ، وجاء إلى محمد باشا كوبرلو ، واشتكى له ، من الأمر ولم يمض وقت طويل حتى أعفاه من منصبه وقد علم كوبرلو أن ذلك الأمر حدث بتحريض رجال السراي^(٣٦)، ومن أجل القضاء على هذا التمرد قام محمد كوبرلو بإجراءات عديدة منها أنه حاول كسب مراكز القوى إلى جانبه وكان في ذلك الوقت شيخ الإسلام (بالي زاده مصطفى أفندي)^(٣٧)، وكذلك اتصل بأغا الإنكشارية (حسين آغا قره حسن اوغلو) وطرح عليهم قضية (سيدي احمد باشا) فوعده بالمساعدة ، وفعلاً تمكن من القضاء على السباهية وقتل أغواتهم وجميع المتمردين في استانبول واسكودار^(٣٨).

وكان عصيان (أباظه حسن باشا) ، الذي اتخذ من بروسه (بورصه) مقراً له ، قد بلغ حداً خطيراً في الأناضول واستطاع أن يكسب تأييد الناس بعود في الإصلاح الاقتصادي والاجتماعي ، فأرسل محمد كوبرلو قوة كبيرة نجحت في سحق التمرد بعد قتال دام في عام ١٠٦٨هـ/١٦٥٨م^(٣٩)، وقد أعدم الكثير من المتمردين وأرسلت إحدى وثلاثون رأساً إلى استانبول ومن بينها رأس أباظه حسن باشا وأربع باشوات لتعرض على الناس^(٤٠)، ويمكن القول إن تمردات الجلالية انتهت منذ ذلك الحين^(٤١).

فضلاً عن إجراءاته في فرض الأمن والنظام والقضاء على التمردات ، فإنه بذل جهوداً كبيرة من أجل إصلاح مالية الدولة ، فعندما تولى الصدارة العظمى ، كانت خزينة الدولة تعاني من ضائقة مالية ، ولذا قرر محمد باشا كوبرلو تدقيق جميع الوظائف وأصحابها والسيطرة عليها ، وقد طلب من الأغنياء أن يقرضوا الدولة ، كما انه كان يأخذ أموالاً من خزينة السلطان الخاصة على سبيل القرض وشن حملة جديدة ضد الفساد وجباية الضرائب أكثر من حدها المقرر ووضع حداً لإسراف الحريم^(٤٢)، وقام بتخفيض المخصصات غير مبالٍ بنفوذ أصحابها ، فقد قطع جزءاً من راتب شيخ الإسلام (سالم مغربي)^(٤٣)، إذ خفض يوميته من (١٠٠٠) اقجة إلى (٧٠) اقجة فقط ، وعندما راجع (سالم مغربي) الصدر الأعظم محمد كوبرلو وتحدث معه بفضاظة قام محمد كوبرلو بإعدامه دون الرجوع إلى السراي^(٤٤)، كما قطع راتباً من الأشخاص الذين يستلمون راتبين من مكانين، كما قطع رواتب العاملين في الكمرك من الذين يساعدهم وضعهم العمل مع أصحاب رؤوس الأموال واتخذ إجراءات أخرى لتنظيم الوظائف لغرض تخفيف الطلب على الخزانة^(٤٥).

ومن ملاحظة ميزانية عام ١٠٧١هـ/١٦٦٠م نجد أن محمد كوبرلو استطاع أن ينعش مالية الدولة إذ ترك عجزاً لا يكاد يذكر بعد أن عانت الدولة من عجز كبير قبل تسلمه الصدارة العظمى وفي هذه السنة (أي : ١٦٦٠م) كانت العوائد تقدر بـ (١٤٥٣١) كيساً ، بينما الإنفاق بلغ (١٤٨٤٠) كيساً^(٤٦).

كما حاول الحد من المعارضة داخل الجيش ، فأعدم آغا الإنكشارية (علي آغا) الذي كان يحرض الجند على العصيان وقضى على تمرد محتمل الحدوث ، فقد اتفق (احتساب آغاسي) أي محتسب استانبول (نقاش حسن) ومحافظ استانبول مع كتخدا السلحدار مصطفى في أدركه لأجل إثارة السباهية ضد الصدر الأعظم ، فاصدر الصدر الأعظم الذي علم بالأمر أوامره إلى آغا الإنكشارية بالقضاء على القائمين بالتمرد^(٤٧).

ولم يكن شيوخ الإسلام بمنأى عن إجراءات محمد كوبرلو الصارمة ، فقد عزل شيخ الإسلام بولوي مصطفى أفندي لأنه لم يصدر الفتوى التي تتيح له قتل السردار حسين باشا دلي^(٤٨)، قائد الجيش العثماني في كريت^(٤٩)، كما أنه لم يتردد في إعدام بطريك الروم بارتينيوس

الثالث (Partenios) الذي أجرى اتصالات مع حكام الافلاق والبغدان (رومانيا الحالية) المرتبطين بالكنيسة الأرثوذكسية وحرصهم على العصيان ضد الدولة العثمانية^(٥٠) ، وقد صلب البطريك في آذار/ ١٦٥٧ م ، ومنذ ذلك التاريخ أصبح البطاركة يباشرون مهامهم من الصدر الأعظم وليس السلطان واستمر ذلك حتى عهد التنظيمات^(٥١).

كما أنشأ القلاع والأبراج على الدردنيل وعمّرها ، وشدد قبضة الدولة فيما وراء البحر الأسود ، وبنى القلاع على نهري الدنيبر والدون ، وأنشأ في أوكرانيا القلعة المسماة بـ (سد الإسلام) أو (دوغان كجيدي) وأراد من بنائها منع الروس من الدخول إلى أوكرانيا والقفقاس الشمالية^(٥٢) ، كما أقام استحكامات جديدة على حدود أردل (ترانسلفانيا) مع النمسا^(٥٣) ، وأبدى همة عالية في الإنفاق على الاحتياجات العسكرية ، وبعد خسارة الأسطول العثماني أمام البنادقة بدأ بتوجيه الاهتمام إلى بناء السفن من جديد وترتيب العسكر^(٥٤).

كما كانت له أعمال عمرانية منها الخان المعروف باسمه في طريق استانبول بين اسكي شهر وازنيق ، كما انشأ الكثير من الأبنية الخيرية في أنحاء الدولة العثمانية وقام ببناء مدرسة ومكتبة وحمام ومدفن^(٥٥).

أما على المستوى الخارجي ، فقد استغل البنادقة الاضطرابات التي سادت الدولة العثمانية وهاجموها واحتلوا بعض الجزر ، لهذا أراد محمد كوبرلو تأديبهم ، فوضع الأسطول تحت قيادة محمد طوبال باشا وأعد قوة عسكرية نجحت في إجبار البنادقة على رفع الحصار المفروض على مدخل الدردنيل في تموز/ ١٦٥٧ م وبالتالي استرداد ما سيطرت عليه البندقية من ثغور فضلاً عن جزيرتي لمنوس وتندوس ، كما قتل فيها قبطان البنادقة نفسه^(٥٦).

ولم يقتصر محمد كوبرلو على تحرير الدردنيل فقط وإنما جعل البحرية العثمانية تستعيد سيطرتها في بحر إيجه ، بحيث أصبح بالإمكان إرسال الإمدادات إلى جزيرة كريت، وعند دخوله إلى الدردنيل أمر ببناء قلعتين كبيرتين هما (سد البحر Seddulbahr) و(كومكاله Kumkale) لحماية المضيق من الهجمات في المستقبل^(٥٧).

كما أدب فرنسا على موقفها من الدولة العثمانية ، فقد استجابت لدعوة البابا الرامية إلى الاشتراك في حملة عسكرية لإخراج العثمانيين من جزيرة كريت ، مما أدى إلى تدهور العلاقة لفترة من الزمن^(٥٨) ، لا سيما أن محمد كوبرلو استقدم ابن السفير الفرنسي وجلده وسجنه وزج السفير الفرنسي نفسه في السجن ، وعندما أرسلت فرنسا مبعوثاً للاحتجاج منعه من مقابلة السلطان^(٥٩).

كانت الانتصارات التي أحرزها محمد كوبرلو على البندقية لا سيما مقتل قائد الأسطول البندقي ، الذي افتتح محمد كوبرلو عهده به بمثابة فأل خير بالنسبة للعثمانيين^(٦٠).

أما من جهة النمسا ، فقد تجدد الصراع معها بعد حرب الثلاثين عاماً (١٦١٨-١٦٤٨م) حول أردل (ترانسلفانيا) والتي كانت تشكل عنصراً للتوازن مع النمسا ومثل ذلك نجاحاً للعثمانيين ، إلا انه وبسبب ضعف الدولة العثمانية فإن سيطرتها على ترانسلفانيا قد ضعفت بعض الشيء ، وقد حاول الأمير جيورجي راكوزي (١٦٤٨-١٦٦٠م) أن يتمرد على الدولة العثمانية^(٦١)، ويتبع سياسة مستقلة ، وفي سنة ١٠٦٩هـ/١٦٥٨م قاد محمد كوبرلو حملة ناجحة في ترانسلفانيا ، أقصى جيورجي راكوزي وأقام مكانه الأمير ميخال (ابايفي)^(٦٢)، وشرط عليه أن يدفع كل سنة (٤٠,٠٠٠) ألف دوكا ، وقد كانت في السابق (١٥,٠٠٠) دوكا، ثم تحالف جيورجي راكوزي مع أمير الأفلاق وأثار المشاكل للدولة العثمانية فعاد إليهما محمد كوبرلو وانتصر عليهما^(٦٣).

وهكذا عمل كوبرلو على تأكيد سلطة الدولة في الداخل والخارج وأخذت الحياة السياسية شكلاً جديداً وتدعمت الموارد المالية ودخل العثمانيون مع تلك الجهود مرحلة إحياء جديدة ، فكانت له هبة كبيرة في نفوس الحكام والولاة فضلاً عن رقابته لهم حتى لو كانوا في ابعـد أطراف الدولة^(٦٤)، وكان شخصاً فائق الشجاعة أظهر صلابـة في حالات عديدة كانت نهايته فيها وشيكة لكنه استطاع أن يتغلب في النهاية ، وكان يرى أن الدولة بإمكانياتها ومواردها قادرة على إلحاق الهزيمة مرة أخرى بأعدائها^(٦٥)، وفعلاً تمكن من خلال السياسة الحازمة إعادة هبة الدولة . من جديد . في عيون أعدائها.

وعلى الرغم من أنه كان يفنقر إلى الثقافة التي يجب أن يتحلى بها الصدور العظام والوزراء ، إلا انه كان نكياً له خبرة بالأمور ودراية بطرق الإدارة وعبوبها^(٦٦)، وقد أثبتت إنجازاته تلك أن الدولة قادرة على تجاوز أشد الصعوبات إذا تولى مناصب الدولة رجال أكفاء.

وقد أشارت المصادر أنه قتل في مسعاه لتوطيد الاستقرار في البلاد ستة وثلاثين ألف شخص وبأن هذه الدماء أعادت النظام إلى صفوف الجيش والأمن إلى البلاد والنزاهة إلى أجهزة الدولة وأصبح شعار الجميع احترام القانون والتفاني في خدمة الدولة بكل إخلاص^(٦٧)، وعلى الرغم من إيراد أعداد أخرى مبالغ فيها حول عدد القتلى في مصادر أخرى^(٦٨)، إلا أنها تعطي صورة عن أسلوب الصرامة والقوة الذي اتبعه محمد باشا كوبرلو في إدارة الدولة.

لما اشتدت وطأة المرض على محمد باشا كوبرلو وشعر بدنو أجله قدم نصائحه للسلطان محمد الرابع ، فقد طلب من السلطان أن لا يصغي أبداً إلى النساء وأن يملأ خزانة الدولة بكل الوسائل الممكنة^(٦٩)، ويبدو هذا طبيعياً لأن كوبرلو محمد باشا أدرك أن تدخل النساء في شؤون الدولة كان وراء الانحلال الذي تعانيه ، كما أدرك أن الاقتصاد عامل أساس في ترصين قوة الدولة ، كما طلب منه أن لا يعهد بالمناصب الحساسة إلى رجل غني وأن يجعل الجيش في حروب مستمرة ، ولما سأله السلطان عن الشخص الذي ينصح بتعيينه صدراً عظماً خلفاً له

أجاب بقوله : " إنني لا أعرف أحداً أكثر مقدرة وكفاية من أبنني أحمد " ^(٧٠)، وقد توفي محمد باشا كوبرلو في ادرنه في عام ١٠٧٢هـ/١٦٦١م ونقل إلى استانبول ودفن قرب مسجده ^(٧١).
تولى فاضل احمد باشا كوبرلو (١٦٦١.١٦٧٦م) بعد أبيه الصدارة العظمى وذلك حسب توصية والده وهو في السابعة والعشرين من العمر ، وكان كأبيه في الذكاء والحنق ^(٧٢)، وقد عُني أبوه بتحصيله الدراسي عناية فائقة ، فقد تخرج من القسم العالي لمدرسة استانبول ، كما أنه تعلم من والده ما لم يتعلمه أبوه من أحد وكان في التنظيم الإداري بارعاً لا يبارى ، ولكنه كان في ميدان الحروب قائداً غير دائم التوفيق ^(٧٣)، وقد كان واحداً من أفضل الوزراء بعد صوقلي محمد باشا الذي تولى الصدارة العظمى طيلة حكم ثلاثة سلاطين (١٥٦٥.١٥٧٩م) ، واستطاع بمزايه العلمية والشخصية أن يضمن الاستقرار في الداخل وإصلاح الأوضاع الخارجية ، وقد سار على خطى والده في السياسة الداخلية والخارجية وأدار الأمور باستقلالية كوالده ولمدة (١٥) سنة ^(٧٤).
شغل أحمد باشا كوبرلو ، قبل أن يتولى الصدارة العظمى ، منصب حاكم دمشق وبذلك اكتسب خبرات إدارية وعمل بطرق ووسائل أقل عنفاً وشدة من أبيه ^(٧٥)، لا سيما أن أباه قد بذل جهوداً في إعادة النظام لذلك شرع يحكم باللين والحكمة ^(٧٦)، فهو لم يكن بحاجة إلى اتباع سياسة والده الشديدة.

كان غالباً ما يستخدم التفاوض وحتى التسوية لمعالجة شؤون الدولة ، واكسبه سلوكه هذا وتواضعه احترام الجميع واستطاع أن يقضي على الفساد ، وعامل أهل الذمة معاملة جيدة وحافظ على حقوقهم ، وعلى الرغم من حملاته العسكرية إلا أن الميزانية لم تكن تعاني من عجز ^(٧٧)، وتشير المصادر إلى أنه قام بإلغاء نظام (الدوشرمه) في عام ١٠٨٦هـ/١٦٧٥م مما أدى إلى انخراط أبناء الانكشارية وغيرهم من المسلمين الأحرار في سلك الإنكشارية ^(٧٨).

أراد فاضل أحمد باشا أن يحيي عهد الفتح فأعلن الحرب على النمسا في ١٢ نيسان ١٦٦٣م على أثر إنشائها خلافاً لمعاهدة ستيفاتورك ١٠١٥هـ/١٦٠٦م ، قلعة Seriuwar (بني قلعة) على الحدود مقابل قلعة عثمانية ، ورفضها هدمها رغم احتجاج الدولة العثمانية ^(٧٩)، وهو ما يعني عدم اعتراف النمسا بسلطة الدولة العثمانية في ترانسلفانيا ، وكان البابا الكسندر السابع (Alexander VII) الذي تولى البابوية (١٦٥٥.١٦٦٧م) قد دعا إلى تحالف صليبي من جديد بلبت الدول الأوروبية الدعوة بما فيها فرنسا لمواجهة حشد الدولة العثمانية ^(٨٠)، وعندما وصل القائد الأوربي مونتي كوكولي لمواجهة العثمانيين في سانت كوتار (S.Gotard) في آب ١٦٦٤م كان تحت أمرته جيشٌ أوربيٌّ موحدٌ ، في الوقت الذي لم يكن فيه الجيش العثماني مستعداً لمواجهة هذا الحشد غير أنهم قاتلوا بقوتهم وشجاعتهم المعهودة لكن أحيط بهم فكانت الحرب سجالياً بينهم وبين الجيش الأوربي ^(٨١)، مما اضطرتهم إلى التوقيع على معاهدة سلام لمدة عشرين سنة في قسبة فاشفار المجرية أو ايزنبرغ (Eisenburg بالألمانية) في ١٠ آب ١٦٦٤م ، وقد تضمنت

هذه المعاهدة (فاشفار) عشر مواد تم فيها تأكيد معاهدة ستفاتورك ١٦٠٦م وأن تدفع ألمانيا غرامات حربية رمزية وتبقى كافة القلاع التي فتحها العثمانيون بيدهم^(٨٢).

من خلال هذه المواجهة ظهر أن القوى الأوروبية تملك معدات عسكرية أفضل وأن القادة الأوروبيين قد تعلموا خلال حرب الثلاثين عاماً أساليب لا يعرفها العثمانيون ، ومع ذلك تم تأكيد الوجود العثماني في ترانسلفانيا وعاد أحمد كوبرلو ظافراً إلى استانبول^(٨٣)، وهكذا كان صلح (فاشفار) انتصاراً دبلوماسياً للدولة العثمانية^(٨٤).

وفي عام ١٠٧٩هـ/١٦٦٨م طلب حاكم القوزاق دوروشينكو حماية الدولة العثمانية بالاتفاق مع جميع القوزاق المقيمين في الجزء الجنوبي من بلاد روسيا وكانوا في ذلك الحين تابعين لبولندا فرد البولنديون بالإغارة على الأراضي العثمانية إلا أن العثمانيين تمكنوا من صددهم وتوغلوا في أراضي بولندا حتى وصلوا (لمبرك Lemberg) في بولوندا (تقع حالياً في أوكرانيا)^(٨٥)، وكان الجيش العثماني الذي يقوده السلطان محمد الرابع بنفسه عام ١٦٧٢م قد استولى على قلعة كامنيك (Kaminice) وتقدم حتى لمبرك ، فطلبت بولندا الصلح فتم توقيع معاهدة صلح في قسبة بوجاس (Buezacz) في بولندا بتاريخ ١٨ تشرين الأول ١٦٧٢م ، تعهدت فيها بولندا بدفع جزية سنوية إلى الدولة العثمانية والاعتراف باستقلال دوروشينكو وأن يصبح إقليم بودوليا الواقع بين نهري الدنيبر ودينستر إقليماً عثمانياً^(٨٦)، إلا أن القائد البولندي جون سوبيسكي نقض صلح (بوجاس) بعد سنة أي في عام ١٠٨٤هـ/١٦٧٣م ، وأصر على مواصلة الحرب مع العثمانيين ، إلا أن قواته طوقت عند (زوردانو) عام ١٠٨٧هـ/١٦٧٦م وأرغم على توقيع معاهدة صلح جديدة تنازل بمقتضاها مرة أخرى عن القسم الأكبر من بولندا لأوكرانيا^(٨٧).

كما أتجه فاضل أحمد باشا كوبرلو لإكمال السيطرة على جزيرة كريت ، فأخذ يجهز الجيوش عام ١٠٧٧هـ/١٦٦٦م وسيرت الدولة العثمانية أساطيلها بقيادة القبطان مصطفى باشا ، كما أصدر أمره إلى باشا مصر لإرسال الفي جندي إلى الجزيرة ، وعلى الرغم من استعانة البندقية ، التي كانت لا تزال تسيطر على قلعة كريت (كانديا) ، بالدول الأوروبية فإن الدولة العثمانية تمكنت من فتح القلعة^(٨٨)، وأتمت السيطرة على كريت في ١٠٨٠هـ/١٦٦٩م رغم المقاومة البرية والبحرية العنيفة التي لقيها العثمانيون^(٨٩).

وهكذا قيل أن مجد آل عثمان قد تجدد في عهد فاضل أحمد باشا كوبرلو إلا أن الدولة العثمانية خسرت بموته في ١٠٧٨هـ/١٦٧٦م خسارة لم يعوضها من بعده خلفه في الصدارة قره مصطفى كوبرلو^(٩٠)، وكان قبل وفاته قد وقف كتبه ووضعها في خزانة ورتب لها أربعة حفاظ وفيها من نفائس الكتب ما لا يوجد في مكان آنذاك ، وخمنت قيمتها بأربعين ألف قرش^(٩١).

- قره مصطفى كوبرلو والحصار العثماني لفينا

تولى قره مصطفى باشا كوبرلو الصدارة العظمى وهو زوج أخت فاضل أحمد باشا ولم يكن كسابقه كفاءة واستعداداً كما يذكر بعض المؤرخين ، كان في الثالثة والأربعين من العمر وقد شغل الكثير من المناصب وأثناء حملات فاضل احمد باشا كوبرلو كان يقوم بمهام الوزير وكالة^(٩٢).

تضاربت المصادر في تحديد صفات الصدر الأعظم قره مصطفى باشا ، ففي الوقت الذي أشارت فيه بعضها إلى انه كان مدبراً وحازماً وعاقلاً وله محبة في قلوب العلماء والفضلاء ويحب المذاكرة العلمية وتعلم الكثير من الفنون وكان مهتماً بأحوال الرعية وتنظيم أمورهم ، إلا أنه كان عنده عجب وخيلاء^(٩٣)، وأشارت مصادر أخرى ، لا سيما كتابات مؤرخين غربيين ، إلى أن صفاته وضيعة وأنه كان مكروهاً من رجال الدولة^(٩٤)، ويبدو أن هذا التحامل من المؤرخين الغربيين على قره مصطفى باشا كان سببه قيادته الجيوش العثمانية لمحاصرة العاصمة النمساوية فينا عام ١٦٨٣م وهو ما عبر عنه أحدهم: " لم يكن ليرضى بأقل من فتح فينا هدفاً لمطامعه "^(٩٥).

نجح قره مصطفى الذي واصل سياسة سلفه في إدامة النظام الداخلي والسلام فضلاً عن الحفاظ على وضع اقتصادي جيد للدولة ، كما انه أساء معاملة القوزاق ، مما دعا خان أوكرانيا إلى العصيان عام ١٠٨٨هـ/١٦٧٧م وطلب مساعدة روسيا التي انتهزت الفرصة فلبت طلبه ، فتكبد الجميع خسائر فادحة وبقيت الحرب بين أخذ ورد حتى عام ١٠٩٢هـ/١٦٨١م حيث عقدت معاهدة صلح سميت (رادزين) حصلت روسيا بمقتضاها على مدينة كييف (Kiev) والمناطق المحيطة بها^(٩٦)، كما جرى التخلي عن معظم أوكرانيا وإعطاء القوزاق حقوقاً تجارية على البحر الأسود وانسحب العثمانيون من تلك المنطقة لاسيما أن التوسع غرباً كان يستحوذ على اهتمام قره مصطفى باشا^(٩٧).

وبينما كان العثمانيون يحاربون في أوكرانيا حدث تطور في بلاد المجر إذ طلب الزعيم المجري اينريش توكويلي (Enrich Toukoely) العون من الدولة العثمانية لمساعدته في إخضاع ما تبقى من المناطق المجرية الواقعة تحت الحكم النمساوي^(٩٨)، فاستجابت الدولة العثمانية لطلبه حيث خرج مصطفى كوبرلو على رأس جيش قوي ، وبعد أن انتصر عدة مرات على النمساويين قصد مدينة فينا عاصمة النمسا فحاصرها سنة ١٠٩٥هـ/١٦٨٣م مدة شهرين واستولى على قلاعها الأمامية كافة وهدم أسوارها بالمدافع وألغام البارود ، وبينما لم يبق له إلا الهجوم الأخير فوجئ بجيش يقوده ملك بولندا سويسكي^(٩٩)، وكان البابا أنو سنت الحادي عشر (Innocent XI) الذي تولى البابوية بين (١٦٧٦-١٦٨٩م)^(١٠٠)، قد دعا الأوربيين إلى إنقاذ فينا فاستجابت البندقية وعدد من الولايات الألمانية وبولندا ، فحملت القوات التي يقودها ملك بولندا

سوبيسكي الذي أفلح في الاتصال بجيش الأمير شارل أمير اللورين ، على الجيش المحاصر وتم دحره ، وفقد العثمانيون عشرة آلاف شخص وثلاثمئة مدفع وعتاداً كثيراً ، مما دعا السلطان إلى إصدار الأمر بقتل قره مصطفى باشا^(١٠١).

ومن الجدير بالذكر أن عزل قره مصطفى ثم قتله جاء بسبب المكائد التي دبرتها أخت السلطان . والتي كان قره مصطفى قد أعدم زوجها الخائن . مع بعض وزراء في الدولة الذين كانوا يكرهونه ، فعندما سمع أحد وزراء الدولة الحانقين على قره مصطفى بهزيمة القوات العثمانية على أسوار فينا أمسك المنديل بيده وأخذ يرقص لأن الصدر الأعظم كان شديداً عليهم ، وبدسائس هؤلاء أمر السلطان محمد الرابع بإعدامه^(١٠٢).

بعد ارتداد الجيش العثماني عن فينا توالى الانتكاسات على العثمانيين إذ أخذت قوتهم العسكرية بالتراجع في أوروبا ، فضلاً عن احتلال الجيوش الأوربية لأملاك واسعة للعثمانيين مما أدى إلى عقد اجتماع عام في مسجد أيا صوفيا للنظر في الوضع فقرر فيه العلماء بالاتفاق مع قائم مقام الصدارة مصطفى كوبرلو عزل السلطان محمد الرابع وتولية أخيه السلطان سليمان الثاني (١٦٨٧-١٦٩١م)^(١٠٣)، ومع ذلك فإن الأوضاع لم تستقر وبقت عصيانات الإنكشارية والسباهية قائمة ، فانتهاز أعداء الدولة الفرصة لاسيما البندقية والنمسا وتوسعوا على حساب الدولة العثمانية^(١٠٤)، مما دعا السلطان سليمان الثاني إلى أن يعقد اجتماعاً استثنائياً للديوان في ادرنه عام ١١٠١هـ/١٦٨٩م دعا فيه كبار رجال الدولة والعلماء ، ويعرف هذا الاجتماع في التاريخ العثماني بأسم (ادرنه ديواني) ، وكان قرار الديوان تعيين الابن الثاني لمحمد كوبرلو وهو فاضل مصطفى باشا صدراً عظماً (١٦٨٩-١٦٩١م)^(١٠٥)، وكانت الصدارة العظمى قد أسندت إلى أشخاص من غير أسرة كوبرلو للفترة (١٦٨٣-١٦٨٩م) مما اربك أوضاع الدولة من جديد إذ ذهبت جهود آل كوبرلو للفترة (١٦٥٦-١٦٨٣م) سدى.

أثبت مصطفى كوبرلو من خلال إجراءاته أنه رجل إدارة من الطراز الأول ، فقبل أن يرسل الجيش إلى الحدود رجح القيام بالإصلاحات العامة^(١٠٦)، وكانت أولى أعماله إصلاح الجندية ، وقد أظهر قسوة وشدة كوالده في هذا الأمر^(١٠٧)، وهو أمر طبيعي لأن الفترة (١٦٨٣-١٦٨٩م) شهدت اضطرابات كبيرة في شؤون الدولة مما أضطره للعودة إلى سياسة والده التي لم يلجأ إليها أخوه أحمد باشا كوبرلو ، فاضطر إلى فصل ما لا يقل عن (٣٠,٠٠٠) ألف إنكشاري ممن كانوا لا يصلحون لتولي هذه الوظائف وأعاد النظام إلى الجيش ولاسيما فيما يتعلق بنظام التيمار ، فقد وزع التيمارات على جنود شبان أكفاء وكلفهم بأن يواصلوا تدريبهم ، وإعداد مدارس الأقاليم لتدريب (الفرسان الإقطاعيين) وعين مفتشين مهمتهم الإشراف على تنفيذ أوامره بهذا الصدد^(١٠٨).

كما حاول أن يحسن الوضع المالي للدولة من خلال تنظيم العملة^(١٠٩)، واستخراج الأموال من أولئك الذين كانوا يبتزون الناس في عهد أسلافه ، ونظم الضرائب على أسس جديدة ووزع الخراج حسب الثروة^(١١٠)، وأبطل البدع والمظالم التي أحدثت في الكمارك وسائر الأمانات والالتزامات ، وأبطل بعض الرسوم والعادات كهدايا الوزراء في مواسم الأعياد ، حتى أعترض عليه البعض لأن هذه الأمور حسب رأيهم كانت الوساطة لإنقاذ الإدارة من الأزمات المالية، إلا أن النتائج جاءت لصالح الدولة التي امتلأت خزائنها بالأموال، وحارب الرشوة وأخذ على أيدي الظالمين ، وكان جانب من موارد الدولة قد تحول إلى الأوقاف فاسترجعها وقال : " الجهاد أولى بها "^(١١١)، كما أهتم أيضاً بالتجارة فحاول تنظيمها وقبل بمبدأ حرية التجارة وألغى تدابير المنع المتخذة سابقاً^(١١٢).

كما أهتم بالعدل ، فمنع العساكر من الاعتداء على الأهالي ومن خالف ذلك أنزل به العقاب الصارم ، وأكد على معاملة جميع الرعايا بالحق دون اعتبار للاختلافات الدينية، وعمل على إصلاح النظام القضائي فقد كان هناك بعض القضاة الذين يتقاضون الرشوة وأصبح البعض يتخذ من شهادة الزور حرفة له ، ولم يتردد في عزل القضاة الذين تدور حولهم الشبهات^(١١٣)، كما أباح للنصارى بناء ما تهدم من كنائسهم في استانبول وعاقب أشد العقاب كل من تعرض لهم في إقامة شعائرهم ، حتى استمال جميع نصارى الدولة وكانت نتيجة هذه المعاملة أن ثار أهالي المورة والأروام على البنادقة وطردوهم لإجبارهم على اعتناق المذهب الكاثوليكي ودخلوا في حمى الدولة مختارين^(١١٤)، وقد وفق في إنجازاته ، إذ استطاع العودة بنظام الدولة إلى مستوى نظام عام ١٠٩٥هـ/١٦٨٣م^(١١٥).

ولما انتظم الجيش بإبعاد المفسدين وساد الأمن في البلاد سار مصطفى كوبرلو لمحاربة الأعداء فتمكن بسرعة فائقة من استرداد مدن نيش وودين وسمندرية ثم بلغراد في ١١٠٢هـ/١٦٩٠م ، كما أعاد إلى أملاك الدولة إقليم ترانسلفانيا^(١١٦)، فقد استعاد مصطفى كوبرلو أراضي تزيد مساحتها على (٢٦٠٠٠) كم واستعادت كامل صربيا والبوسنة وبلغاريا بشكل تام ورغم أن الصرب كانوا ضد العثمانيين إلا أن مصطفى باشا كوبرلو عفا عنهم ووزع البذور مجاناً على مناطق القحط وبذلك كسب ودّ الصربيين بشكل حال بينهم وبين التفكير في العصيان لفترة^(١١٧).

وعلى أثر سماع السلطان سليمان الثاني بتلك الانتصارات قدم من أدرنه إلى استانبول واستقبل الشعب مصطفى كوبرلو بمظاهر ترحيب عظيمة ، وخلع السلطان مصطفى الثاني برده عليه ، ثم بكا ودعا له ، وقال له : " استعد لاسترداد المجر في العام المقبل " ، وقد زادت تلك الانتصارات من خوف النمسا التي عمدت إلى تحصين فينا كما أعيد تحصين بودابست^(١١٨).

عاد مصطفى كوبرلو مرة أخرى عام ١١٠٣هـ/١٦٩١م لمقاتلة النمسا واسترجاع المجر ، وكان مصطفى باشا كوبرلو في مقدمة جيشه الذي اشتبك مع العدو وكان يحرض على القتال والسيف بيده وإذا برصاصه تصيبه في رأسه^(١١٩)، فسقط في معركة سلنكمن (Solankemen) وكان قائداً للجيش النمساوي لويس فون بادن ، فدارت المعركة على العثمانيين وفقدوا (٢٨) ألف شخص و (١٥٠) مدفعاً ، وكان لهذا الأمر أثره السيئ على الدولة العثمانية التي بقيت لمدة (٤) سنوات لم يلتئم جرحها بموت مصطفى باشا كوبرلو^(١٢٠).

منيت الدولة بعد موت الصدر الأعظم مصطفى باشا كوبرلو بخسارة كبيرة وكان أهمها خسارة العثمانيين أمام البندقية إذ سيطرت الأخيرة على جزيرة ساقر في ١١٠٦هـ/ ١٦٩٤م^(١٢١)، وأصابت الدولة العثمانية اضطرابات كان لها خطورتها ، وأثارت السلطان احمد الثاني (١٦٩١-١٦٩٥م) الذي أقرّ باختلال القوانين وأصدر فرماناً باسم (عدالة نامه) عام (١٦٩٢-١٦٩١م) أوضح فيه أن التخلي عن قوانين السلطان سليمان القانوني كانت السبب في خراب الدولة ، ودعا إلى إبطال البدع السيئة ومعاقبة الذين يمارسون الظلم ضد الشعب^(١٢٢)، مما يعني أن السلطان كان يشعر بوجود خلل كبير في دولته وأن آراءه في هذا المجال لا تختلف عن آراء المفكرين العثمانيين الذين قدموا أفكارهم حول انحطاط الدولة العثمانية.

بقيت الدولة العثمانية تعيش أوضاعاً مضطربة بعد خسارة فاضل مصطفى باشا كوبرلو ، إلا أن السلطان مصطفى الثاني (١٦٩٥-١٧٠٣م) عوض عن تلك الخسارة ، فأعلن هذا السلطان بعد توليه العرش بثلاثة أيام عن عزمه على قيادة جيوش الدولة بنفسه^(١٢٣)، وأصدر فرماناً قال فيه: " لا يجوز لعبيد الله أن يتمتعوا بالراحة وهم على تخت السلطنة فمن الآن أحتم أن التلذذ والكسل سيهجر دولتي ..."^(١٢٤).

تمكن الأسطول العثماني في الأيام الأولى من تولي السلطان مصطفى الثاني من استعادة ساقر من البنادقة الذين احتلوها لمدة (٥) أشهر^(١٢٥)، وقاد السلطان جيشه إلى بولندا واجتاحها ، كما تمكن من رفع الحصار الروسي عن أزوف ، ثم تحول إلى بلاد المجر وسيطر على حصن (لبا) وانتصر على القائد النمساوي قتراني وأسره واستعاد طمشوار في عام ١١٠٧هـ/١٦٩٥م ، وتغلب على النمساويين في عدة مواقع إلا أنه خسر أمام القائد النمساوي (اوجين دي سافوا) عند بلدة (زنتا) المجرية وقتل في تلك المعركة الصدر الأعظم الماس محمد باشا في عام ١١٠٩هـ/١٦٩٧م ، وتمكن القائد النمساوي من السيطرة على البوسنة^(١٢٦)، وبهذه الهزيمة ضاعت كافة قلاع المجر من العثمانيين^(١٢٧).

وفي الجبهة الشمالية الشرقية ، استغلت روسيا انشغال العثمانيين في المجر ، وسيطرت على أزوف وحقت بذلك موطن قدم على البحر الأسود لأول مرة^(١٢٨)، أمام تلك الأخطار أدرك السلطان مصطفى الثاني دور آل كوبرلو في النهوض بالدولة فقرر إعادة هذه الأسرة لتتولى

مركز الصدارة العظمى من جديد بعد أن خلى منها للفترة (١٦٩١-١٦٩٧م) ، فحال عودته من بلاد المجر وجه الصدارة العظمى الى شخص من أسرة كوبرلو هو عموجه حسين باشا (١٦٩٧-١٧٠٢م)^(١٢٩).

- عموجه حسين باشا كوبرلو

قاد الصدر الأعظم الجديد جيشاً إلى بلاد البوسنة وأجبر النمساويين على الانكفاء إلى ما وراء نهر الساف (Save) ورغبةً من الصدر الأعظم في إنهاء هذه الحرب وتضميد جراحات الدولة التي أيده فيها رجال الدولة الآخرين ، جرت مفاوضات للصلح مع النمسا بوساطة بريطانيا وهولندا ، وبذلك وقعت الدولة العثمانية مضطرة على معاهدة سميت بمعاهدة كارلوفيتز (Carlowitz) مع النمسا وروسيا والبندقية^(١٣٠)، وهي أول معاهدة توقعها الدولة العثمانية كقوة مهزومة^(١٣١)، وبموجب تلك المعاهدة تنازل العثمانيون للنمسا عن المجر وترانسلفانيا ولبولندا عن كل بودوليا وأوكرانيا ، واحتفظت البندقية بدلماسيا والموره ، وألغيت ضريبة الجزية التي كانت تدفعها الدول الأوروبية إلى الدولة العثمانية^(١٣٢).

حاول عموجه حسين كوبرلو أن ينتهز فرصة السلام لكي يوقف المعاناة التي كانت تسوق الدولة العثمانية باتجاه الانحدار السريع ، فبدأ بإصلاح الوضع الداخلي من خلال سلسلة من الإجراءات في المجالين العسكري والاقتصادي^(١٣٣)، وأول إجراء قام به هو إعفاء الأهالي في مناطق الحدود ، الذين تضرروا بسبب الحروب ، من الضرائب وأرسل المعونات إلى المحتاجين منهم ، كما بذل الجهود لإلغاء الرشوة والفساد^(١٣٤).

كما أهتم ببناء المساجد والمدارس والأسواق والثكنات العسكرية ورسم أسوار بلغراد وطمشوار ونيش وشحنها بالأقوات ونظر في أحوال النصارى من الرعايا فعاملهم على قدم المساواة مع المسلمين^(١٣٥)، وحاول إصلاح من يتولى مهمة النسخ والكتابة في البلاط العثماني من الخطاطين والنساخين وفرض الكفاءة التي كانت سائدة في القرن السادس عشر^(١٣٦)، وأصدر أوامره إلي جميع أنحاء السلطنة بأن على جميع المأمورين أن يكونوا علماء وأن يحفظوا القرآن الكريم وقواعد الدين الإسلامي ، وشدد في انتخاب المدرسين، ووضع الإدارة وقيادة الجيش تحت الرقابة الشديدة^(١٣٧).

وهنا نلمس تأثيراً واضحاً لمفكري عصره ، إذ حاول أن يضع أفكارهم موضع التنفيذ، وقد كانت تلك الأفكار تدور حول التمسك بالإسلام والشرع الإسلامي كأساس للنهوض بالدولة من واقعها المتردي.

أما إصلاحاته المالية ، فبعد صلح كارلوفيتز قام بإصدار بعض الأوامر لغرض إلغاء الضرائب الزائدة وتوجيه الناس نحو الزراعة وإعمار البلاد ، كما أن تخفيض أعداد الجند أدى

إلى تحسن وضع الخزينة وحدوث استقرار مالي^(١٣٨) ، واعتمد في إدارة المقاطعات أسلوب (المالكانه) ويقصد بها بيع مقاطعات الالتزام ، أي حقوق جباية الضرائب ، إلى الأشخاص مدى الحياة بدلاً من مدة محددة ، ويشبه هذا الأسلوب إقطاع التملك إلى حد ما، عدا أن إقطاع التملك يورث ، في حين أن المالكانه تكون للشخص مدى الحياة ولا يرثها أحد من بعده^(١٣٩).

كان لصاحب المالكانه الحق في أخذ إيجار الأرض من الفلاح والبالغ (١٠%) أو (٢٠%) من الحاصل باسم حصة المالكانه أو (مالكانه حصه سي) ، في حين أن بقية الضرائب التي تتراوح بين (١٠% . ٥٠%) من الحاصل تؤخذ للدولة باسم حصة ديواني (ديواني حصه سي) وهذه الضرائب العائدة للدولة كان يجمعها السباهي أو الملتزم ثم أصبحت جبايتها بيد أصحاب المالكانات ، فبمرور الزمن تحولت الكثير من المالكانات إلى أملاك شبه حقيقية إذ تصّرف أصحابها بحصة الديوان (أي الدولة) ، بعد دفعهم مبلغاً سنوياً مقطوعاً للدولة مقابل ذلك^(١٤٠).

كما تم تغيير دفاتر المقاطعات وفقاً للفرامين التي صدرت خلال الحرب ، وكان لإلغاء عموجه حسين باشا للضرائب التي فرضت في فترة الحرب انعكاساً على الفلاحين الذين أصبح بإمكانهم زيادة الإنتاج^(١٤١) ، كما قام بتوطين القبائل الرحل اليوروك (Yoruk) في أنطاليا وأورفه بل وحتى في قبرص وحولهم إلى تجمعات إنتاجية ، كما بدأ بتصحيح عيار العملة^(١٤٢) ، وبذل الجهود لتشجيع الإنتاج الحرفي في الدولة العثمانية من أجل منافسة الإستيرادات الأوربية التي غزت الأسواق العثمانية^(١٤٣).

أما في الجانب العسكري ، والذي عُدد من الجوانب المهمة في هذه الفترة التي بدأت الدولة العثمانية تتعرض من جديد لأحلاف صليبية ، فقد قبض على كل مثيري الاضطرابات والدسائس فقتل فريقاً منهم ونفى آخرين^(١٤٤) ، وكان قد أصدر أمراً في عام ١١١٣ هـ/ ١٧٠١م أكد فيه على أهمية الخدمات التي قدمها الانكشارية سابقاً ، ومضى إلى القول " أن الأشخاص الذين دخلوا إلى الخدمة من خارج الاوجاق^(١٤٥) ، أدوا إلى فقدان الضبط والنظام في الانكشارية لذا يجب عدم قبول انضمام أي فرد من خارج الأوجاق كذلك إخراج أولئك الذين لم يخدموا في القلاع الحدودية من صنف الانكشارية "^(١٤٦) ، وبذلك خفضت أعداد الانكشارية من (٧٠٠٠٠) إلى (٣٤٠٠٠) ألف شخص ، كما أن جداول الرواتب للانكشارية كانت تتعرض للفحص الدقيق وتم أيضاً تخفيض أعداد منتسبي فرقة المدفعية بشكل مشابه من (٦٠٠٠) آلاف شخص إلى (١٢٥٠) شخصاً^(١٤٧) ، وأفراد صنف الجبجيه وهو الصنف المكلف بحفظ الأسلحة وصيانتها إلى (٢٤٠٠) شخصاً ، وفي هذه الفترة أيضاً تم تخفيض أعداد فرسان القابي قولي أي التابعين للسلطان ، أما بالنسبة إلى صنف السباهية (الفرسان الإقطاعيين) فقد جرى التدقيق والسيطرة على براءات التيمار وتم إصدار براءات جديدة محل القديمة ، كما أقر بأن يتواجد السباهية في

السناجق التابعين لها وأن يلتحقوا بالحملة الحربية تحت لواء قادتهم عند الحاجة، كما تم فصل التيمارات التي كانت مسجلة باسم شخصين وسجل كل تيمار باسم شخص^(١٤٨).

وأجرى إصلاحات على البحرية العثمانية بالتعاون مع أمير البحر حسين باشا موزمورتو ، والذي كان يؤمن بانتهاء دور المراكب المجذافية (القادرغ) ^(١٤٩) ، والتي عبّر عنها بأنها أصبحت ملكاً للتاريخ ولا تفي بالحاجة ، لذا يجب استبدالها بالسفن الشراعية (الغالينون) ^(١٥٠) ، لذلك أعدّ حسين باشا موزمورتو قانوناً جديداً للبحرية العثمانية في ١١١٣هـ/١٧٠١م لم يطبق في حينه بسبب وفاته ^(١٥١) ، وقد نص هذا القانون على عدم إمكان حصول أي شخص على رتبة ضابط في البحرية العثمانية ما لم يكن أبوه ضابطاً أو جندياً حائزاً على سجل مشرف في الأسطول الهمايوني ، وكانت هذه المادة مطبقة سابقاً من العثمانيين ، كما كانت تطبق في إنجلترا ، لكنها لم تكن مكتوبة ^(١٥٢).

وبموجب هذا القانون أيضاً أصبحت الرواتب تحدد على أساس المعرفة والخبرة وعلى أساس سنوات الخدمة ، وحدد القانون أيضاً الشروط التي يتم بموجبها توجيه التيمار في السناجق والأفضية التابعة إلى القبطان باشا والى أبناء أصحاب تلك الإقطاعات ^(١٥٣) ، وفي عهده جددت قطع الأسطول وأصلح جميع مصانع السفن وأكسبها حيوية جديدة ^(١٥٤) ، على الرغم من أن القانون الذي وضعه حسين باشا موزمورتو لم يطبق في حياته فقد طبق في عهد أمير البحر عبد الفتاح باشا ^(١٥٥).

لقيت السياسة الإصلاحية للصدر الأعظم عموجه حسين باشا كوبرلو معارضة من أولئك الذين تضررت مصالحهم فأخذوا يدسون حوله وحول أعوانه ، مما أضطره إلى الاستقالة في ١٠١٤هـ/١٧٠٢م بسبب تدخلات شيخ الإسلام فيض الله أفندي ^(١٥٦) بصورة غير قانونية في جميع أمور الدولة ، منها تدخله في التعيينات ، وتعيين أقاربه في مناصب الدولة العليا وتدخله في صلاحيات الصدر الأعظم وعرقلة نظام الدولة ، وبعد (١٧) يوماً من استقالة عموجه حسين باشا توفي ^(١٥٧) ، وبموته وضع الختم على السياسة الإصلاحية التي أرساها محمد باشا كوبرلو قبل نصف قرن تقريباً.

أحدث موت عموجه حسين باشا كوبرلو من جديد شرخاً في الدولة العثمانية ، إذ تولى الصدارة العظمى أشخاص لم يكونوا بمستوى أدائه ، فقد كان الصدر الأعظم الجديد مصطفى باشا ميالاً للحرب غير راضٍ عما تم الاتفاق عليه مع الدول الأوروبية وعزم على خرق معاهدة كارلوفيتز وإثارة الحرب على النمسا ، ولما شعر كبار رجال الدولة بخطورة هذا الأمر طلبوا من السلطان عزله فعزله وعيّن مكانه رامي محمد باشا ، وكان هذا شاعراً وكاتباً أشتهر في أوروبا بأنه دبلوماسي كارلوفيتز القدير ^(١٥٨) ، وقد سار على خطى عموجه حسين باشا كوبرلو ، فطفق يبطل المفاسد ويعاقب أصحاب الرشوة ويمنع المظالم فثار عليه الانكشارية وانتهى الأمر بعزله مع السلطان مصطفى الثاني ليتولى العرش العثماني السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣-١٧٣٠م) ^(١٥٩).

أما نعمان باشا كوبرلو الذي تولى الصدارة العظمى عام ١٧١٠م فقد كان نظير أسلافه في العدل إلا أنه كان ينقصه علو أفكارهم ، وكان سبب عدم طول مدته التي استمرت شهرين فقط^(١٦٠)، هو معارضته للسلطان أحمد الثالث في إسرافه ورفضه دفع معاشات الانكشارية بطرق غير مشروعة^(١٦١).

الخاتمة :

وهكذا فإن آل كوبرلو أعادوا تنظيم الدولة وقاموا خير قيام بأعباء الحكم خلال فترة توليهم الصدارة العظمى^(١٦١)، واستأصلوا المفاصد في الجيش والحكومة واستعادوا الصدق والكفاءة والنظام للدولة^(١٦٢)، وإليه يعود الفضل في إيقاف عوامل الانحلال في الدولة العثمانية حيناً من الزمن^(١٦٣).

ورغم جهود آل كوبرلو هذه فإنه في الفترة التي لم يكن فيها شخص من آل كوبرلو في منصب الصدارة العظمى فإن أحوال الدولة تضطرب بشكل كبير مما يضطر الشخص الذي يتولى المنصب من آل كوبرلو أن يبدأ من جديد وهو ما عرقل كثيراً من جهودهم الإصلاحية ، ففي الوقت الذي وجد فيه فاضل أحمد كوبرلو الأمور مهياً من والده محمد باشا كوبرلو بحيث لم يضطر إلى استخدام الشدة التي لجأ إليها والده مضطراً بسبب تداعي أحوال الدولة ، كان على مصطفى كوبرلو أن يبدأ من جديد لا سيما أن الفترة (١٦٨٣-١٦٨٩م) تولى الصدارة العظمى أشخاص من غير أسرة كوبرلو لم يستطيعوا أن يقدموا للدولة شيئاً في ظرفها العصيب ، كذلك كان على عموجه حسين باشا كوبرلو أن يبدأ من جديد بعد فترة انقطاع آل كوبرلو عن الصدارة العظمى للفترة (١٦٩١-١٦٩٧م).

هذه الانقطاعات قللت من جدوى الجهود التي بذلتها هذه الأسرة في إصلاح حالة الدولة ، رغم أنها أخرت انهيارها لفترة من الزمن.

هوامش الدراسة

- (١) احمد رفيق ، كويريلير ، (استانبول - كتابخانه عسكري ، ١٣٣١هـ) ، ص ١٣ .
- (٢) تولى المشيخة (١٦٤٧.١٦٤٩م) وقد حدثت أيام توليه المشيخة ثورة ضد السلطان إبراهيم ، قام بها الأغوات بمساندة والدة السلطان (ماه بيكر) مما أدى إلى خلعه وقد أفتى عبد الرحيم أفندي بقتل السلطان بعد عزله . ينظر: شقيرات ، المصدر السابق ، ص ٤٩٧ .
- (٣) شرف ، المصدر السابق ، ص ٤٥ .
- (٤) رفيق ، المصدر السابق ، ص ١٣ . وحسب ما يذكر اوزوتونا فإن منصب الصدارة العظمى قد شهد (١٤) تعييناً بين (١٦٤٠-١٦٤٨م). ينظر: Oztuna , A .G . E. , SS .441-442.
- (٥) للتفاصيل عن الصراع بين ماه بيكر السلطانة الجدة وتارخان السلطانة الوالدة ينظر: Salk Zade , A .G .E. , SS .602-603; Kurat , The Ottoman Empire ... , p .505; اوزتونا ، المصدر السابق ، ص ص ٤٩٦-٤٩٧ .
- (٦) برجواي ، المصدر السابق ، ص ١٦١ . وللمزيد عن تلك الاضطرابات ينظر: Vahid Cabuk , Kopruluier , (Istanbul , 1988), SS .13-16.
- (٧) نوار ، الشعوب الإسلامية ، ص ١٥٩ ؛ عماد ، المصدر السابق ، ص ٢٤ .
- (٨) الناصري ، المصدر السابق ، ص ٦٣ ؛ حامد ومحسن ، المصدر السابق ، ص ١٧٩ .
- (9) Robert Liddell , Byzantium and Istanbul , (London ,1958) , p143; الساداتي ، المصدر السابق ، ص ٢٦٠ .
- (١٠) شرف ، المصدر السابق ، ص ٥١ ؛ رفيق ، المصدر السابق ، ص ١٤ ؛ Kurat , The Ottoman Empire ... , p. 506.
- (١١) شرف ، المصدر السابق ، ص ٥١ .
- (١٢) اوزوتونا ، المصدر السابق ، ص ٥٠١ .
- (١٣) المصدر نفسه ، ص ٥٠٠ .
- (١٤) اوزتونا ، المصدر السابق ، ص ٥٠١ .
- (١٥) حسين مؤنس ، الشرق الإسلامي في العصر الحديث ، ط ٢ ، (القاهرة ، ١٩٣٨) ، ص ٢٤٢ .
- (١٦) رفيق ، المصدر السابق ، ص ١٩ ؛ شرف ، المصدر السابق ، ص ٥٢ .
- (١٧) حامد ومحسن ، المصدر السابق ، ص ١٨٠ ؛ بروكلمان ، المصدر السابق ، ص ٥١٦ .
- (18) M .de Hammer “، Repport Sur le Sixieme Volum d ,l ,Histoire Ottoman“، Journal Asiatique ,Tom .VII . Paris , 1831, p.144; حامد ومحسن ، المصدر السابق ، ص ١٨٠ ؛ مصطفى ، في أصول ٠٠٠ ، ص ١٥٣ .
- (١٩) حامد ومحسن ، المصدر السابق ، ص ١٨٠ .
- (٢٠) كان الوالي المعزول من حكم الأيالة والذي يحمل رتبة الوزارة عندما يعود إلى العاصمة يصبح في عداد وزراء القبه أو ما يسمى (وزير ديوان) . ينظر: مراد ، تاريخ العراق ٠٠٠ ، ص ٩٠ .
- (21) Stanley Lan Poole , Turkey , (Beirut ,1966) , p . 221 ;

اوزتوتا ، المصدر السابق ، ص ٥٠١ . اختلفت المصادر في تحديد عمره بينما يشير شرف أنه تولى وهو في الخامسة والسبعين ، يذكر الحنبلي أنه تولى وعمره (٩٠) سنة . ينظر: شرف ، المصدر السابق ، ص ٥٣ ؛ الحنبلي ، المصدر السابق ، ص ٨٠ .

(22) Hammer , op . cit , p. 144؛

شرف ، المصدر السابق ، ص ٥٣ ؛ عمر ، المصدر السابق ، ١١٢ .

(٢٣) شرف ، المصدر السابق ، ص ٥٣ . تعجب الناس أيضاً من تعيينه في المنصب وعدوا ذلك دلالة على مدى ما وصلت إليه أمور الدولة من تدهور . ينظر: رفيق ، المصدر السابق ، ص ١٨ .

(24) Karamursal , A . G . E . , S . 10.

(25) Hammer , op . cit , p . 144؛

رفيق ، المصدر السابق ، ص ١٦ .

(٢٦) اوزتوتا ، المصدر السابق ، ص ١١٢ .

(٢٧) شرف ، المصدر السابق ، ص ٥٣ ؛ عماد ، المصدر السابق ، ص ٢٤ .

(٢٨) المحبي ، المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٣١٠ .

(٢٩) مما يحكى عنه أنه كان يؤاخي وزيراً وكان بينهما موائيق مودة يعرفها الناس، فاستحضره إليه وقال له: " أريد قتلك اليوم " ، فقال له الوزير : " لم تقتلني ولم يصدر مني ما يوجب القتل وأنا على عهدك وميثاقك ، فماذا يحصل من قتلي ؟ " ، فقال له كوبرلو : " أن قتلك إرهاب عظيم للقوم فأنهم سيقولون الوزير قتل أقرب الناس إليه فهو لا يتوانى في أمر القتل وبهذا القي الرعب في قلوبهم " ، فألحَّ عليه أن يترك ذلك فلم يفعل وقتله في الحال . ينظر: المصدر نفسه ، ص ص ٣١٠-٣١١ .

(٣٠) رفيق ، المصدر السابق ، ص ٣٠ .

(31) Yucel ve Sevim , A . G . E . , SS . 145-146.

(32) Cabuk , A . G . E . , SS . 23-24؛

برجاوي ، المصدر السابق ، ص ١٦٢ .

(33) Cabuk , A . G . E . , S . 25 ; Yucel ve Sevim , A . G . , S . 146.

من الملاحظ أن هناك تناقضاً في الأمر فحين نجده حسب الرواية السابقة يقتل أقرب المقربين إليه دون ذنب يكتفي بتولية سيدي أحمد باشا على البوسنة بقصد إبعاده رغم تأمره عليه مع بعض رجال البلاط .

(34) Yucel ve Sevim , A . G . E . , S . 164 .

(٣٥) شرف ، المصدر السابق ، ص ٥٤ ؛

Yucel ve Sevim , A . G . , S . 146.

(٣٦) تولى مشيخة الإسلام (١٦٥٦-١٦٥٧م) . ينظر عنه : ثريا ، المصدر السابق ، ص ٧٦٥ ؛ شقيرات ، المصدر السابق ، ص ص ٥٣٥-٥٣٧ .

(٣٧) رفيق ، المصدر السابق ، ص ص ٣٤-٣٧ ؛

Cabuk , A . G . E . , S . 25; Yucel ve Sevim , A . G . E . , SS . 126-127.

(38) Kurat, The Ottoman Empire ..., p . 508 ; Inalcik ,The Heyday ... , p.350.

(39)Kurat, The Ottoman Empire...,p.508 ; A . N . Kurat , The Reign of Muhamed IV 1648-1687 , In Cook , op . cit , p.165.

(٤٠) اوزتونا ، المصدر السابق ، ص ٥٠٤ . هناك من يشير أن التمردات الجلالية استمرت حتى عام ١٦٢٨م . ينظر: الفصل الأول ، الموضوع الخاص بتمردات الجلالية.

(41) Karamursal , A . G . E . , S .10؛

برجاوي ، المصدر السابق ، ص ١٦٢ .

(٤٢) لم نجد أسم هذا الشخص في المؤلف الذي أعده شقيرات عن مشايخ الإسلام في العهد العثماني ولا نعلم إذا كان هذا فعلاً من شيوخ الإسلام أو من أحد العلماء البارزين في الدولة ، وقد ورد في أحد المصادر انه من الأشخاص الذين يتمتعون بنفوذ كبير دون الإشارة إلى وظيفته . ينظر: حامد ومحسن ، المصدر السابق ، ص ١٨٢ .

(٤٣) المصدر نفسه .

(44) Yucel ve Sevim , A .G . E . , S .148.

(45) Kurat, The Ottoman Empire ... , p .507.

(46) Yucel ve Sevim, A . G . E . , S.152.

(٤٧) ينظر : سامي ، المصدر السابق ، ج ٣، ص ١٩٧٥ .

(٤٨) عن هذا الأمر وعن شيخ الإسلام بولوي مصطفى أفندي (١٦٥٧-١٦٦٩) . ينظر: شقيرات ، المصدر السابق ، ص ٥٤٠-٥٤١ .

(٤٩) رفيق ، المصدر السابق ، ص ٣٨ .

(50) Yucel ve Sevim , A . G . E . , S .148.

(٥١) شرف ، المصدر السابق ، ص ٦٤؛ مصطفى ، في أصول ٠٠٠ ، ص ١٥٤؛ اوزتونا ، المصدر السابق ، ص ٥٠٤ .

(٥٢) شرف ، المصدر السابق ، ص ٦٧ .

(٥٣) المصدر نفسه ، ص ٥٤ .

(٥٤) المصدر نفسه ، ص ٦٤ ، ٦٧ .

(٥٥) رفيق ، المصدر السابق ، ص ٤٧ ؛ الساداتي ، المصدر السابق ، ص ٢٦١ ؛

Kurat ,The Ottoman Empire ... , p .506.

(56) Kurat ,The Ottoman Empire ... ,p .508.

(٥٧) ريان ، المصدر السابق ، ص ٤٢ ؛ برجاوي ، المصدر السابق ، ص ١٦٣ .

(٥٨) بيهيم ، فلسفة التاريخ ، ص ٢٨٧ .

(٥٩) اوزتونا ، المصدر السابق ، ص ٥٠٢ .

(60) Kurat , The Ottoman Empire...., p.508;

إحسان اوغلي ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٦ .

(61)Inalcik ,The Heyday...., p.352;

بروكلمان ، المصدر السابق ، ص ٥١٧ .

(٦٢) الصدفي ، المصدر السابق ، ج ٣، ص ١٣٥ ؛

Kurat ,The Ottoman Empire...., p.509.

(٦٣) لبيب ، تاريخ العثمانيين ٠٠٠ ، ص ١٢١ ؛ إحسان اوغلي ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٦ .

(٦٤) شرف ، المصدر السابق ، ص٦٦ ؛

Mahmud , The Story..., p.228.
(65)Kurat ,The Ottoman Empire..., p.506.

(٦٦) عمر ، المصدر السابق ، ص١١٣ .

(٦٧) يشير أحد المصادر أنه قتل بين (٥٠-٦٠) ألف خلال فترة صدارته التي بلغت خمس سنوات . ينظر:
Kurat ,The Ottoman Empire..., p.506.
(68)Hammer , op . cit , p.146.

(٦٩) عمر ، المصدر السابق ، ص١١٣ .

(٧٠) اوزتونا ، المصدر السابق ، ص٥٠٥ .

(٧١) شرف ، المصدر السابق ، ص٦٧ ؛ الصدفي ، المصدر السابق ، ص١٣٥ .

(٧٢) لبيب ، تاريخ المسألة الشرقية ، ص٣٨ ، اوزوتونا ، المصدر السابق ، ص٥٠٥ .

(٧٣) حامد ومحسن ، المصدر السابق ، ص ص١٨٦-١٨٧ ؛

Kurat ,The Ottoman Empire..., p.510.

(74) Hammer , op . cit , p.145؛

مصطفى ، في أصول ٠٠٠ ، ص١٥٤ .

(٧٥) لانجر ، المصدر السابق ، ج٤ ، ص١٢٨٠ .

(76) Kurat ,The Ottoman Empire..., p.510 ; Mahmud , The Story..., p.228.

(٧٧) مصطفى ، في أصول ٠٠٠ ، ص١٥٤ . وينظر : عمر ، المصدر السابق ، ص١١٣ . وقد تمت الإشارة
إلى اختلاف المصادر في مسألة إلغاء (الدوشرمه) في المبحث الأول من هذا الفصل .

(٧٨) اوزتونا ، المصدر السابق ، ص٥٠٦ .

(٧٩) عن هذا البابا ودوره في هذا الحلف الصليبي ينظر:

J . N . D . Kelly , The Oxford Dictionary of Popes , (Oxford,1986), pp.283-284.

(80) Mahmud , The Story..., p.229.

(٨١) اوزتونا ، المصدر السابق ، ص٥٠٨ .

(82) Kurat ,The Ottoman Empire..., p .511; Price , op . cit , p. 64;

برجاوي ، المصدر السابق ، ص١٦٤ .

(٨٣) جون . أ . هامرتن ، تاريخ العالم ، المجلد ٦ ، ترجمة : إدارة الثقافة بوزارة التعليم العالي ، (مصر ، د.ت) ،
ص٥٥٢ .

(84) Mahmud , The Story..., p.229;

برجاوي ، المصدر السابق ، ص١٦٥ .

(85) Kurat ,The Ottoman Empire..., p.512.

(٨٦) برجاوي ، المصدر السابق ، ص١٦٦ .

(٨٧) سرهنك ، المصدر السابق ، ص٩٥٨ ؛ جلال يحيى ، مصر الحديثة ١٥١٧-١٩٠٨ ، (الإسكندرية،
١٩٦٩) ، ص١٥٨ .

(٨٨) يحيى ، مصر الحديثة ، ص١٥٨ . وينظر:

Marriott , op . cit , p.114.

(٨٩) بيهم ، فلسفة التاريخ ، ص٢٨٩ .

- (٩٠) المحبي ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٥٦ ؛ الساداتي ، المصدر السابق ، ص ٢٦٢ .
 (91) Kurat ,The Ottoman Empire...., p.512.
 (٩٢) ينظر : المحبي ، المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ص ٣٩٧-٤٠٣ .
 (٩٣) ينظر عن هذه الصفات :
 Hammer ,op. cit, p.146; Kurat ,The Ottoman Empire...., p.512.
 (٩٤) هامرتون ، المصدر السابق ، ص ٥٥٣ .
 (95) Kurat ,The Ottoman Empire...., p.512;
 برجوي ، المصدر السابق ، ص ١٦٦ .
 (96) Kurat ,The Ottoman Empire...., p.512;
 لانجر ، المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٢٨٠ .
 (٩٧) برجوي ، المصدر السابق ، ص ١٦٦ .
 (٩٨) محمد فريد بك المحامي ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ط ٢ ، (بيروت ، ١٩٧٧) ، ص ص ١٣٦-١٣٧ .
 (99) Kelly,op.cit ,pp. 282-288.
 (١٠٠) هامرتون ، المصدر السابق ، ص ٥٥٤ . وينظر:
 Marriott , op . cit , p. 123.
 (١٠١) اوزتونا ، المصدر السابق ، ص ٥٤٢ .
 (١٠٢) ينظر : برجوي ، المصدر السابق ، ص ص ١٦٧-١٦٨ .
 (١٠٣) ينظر : أرسلان ، المصدر السابق ، ص ٢٣٥ .
 (١٠٤) حامد ومحسن ، المصدر السابق ، ص ٢٥٦ .
 (١٠٥) حامد ومحسن ، المصدر السابق ، ص ٢٥٧ .
 (١٠٦) الحنبلي ، المصدر السابق ، ص ٨٥ .
 (١٠٧) مصطفى ، في أصول ، ص ١٥٨ .
 (108) Hitti ، The Near East...., p. 343.
 (١٠٩) حامد ومحسن ، المصدر السابق ، ص ٢٥٧ .
 (١١٠) جودت باشا ، المصدر السابق ، ص ٦٠ ؛ أرسلان ، المصدر السابق ، ص ٢٣٥ .
 (١١١) حامد ومحسن ، المصدر السابق ، ص ٢٥٧ .
 (١١٢) حامد ومحسن ، المصدر السابق ، ص ٢٥٧ ؛ أرسلان ، المصدر السابق ، ص ٢٣٦ .
 (١١٣) المحامي ، المصدر السابق ، ص ١٣٩ .
 (١١٤) اوزتونا ، المصدر السابق ، ص ٥٦٢ .
 (١١٥) برجوي ، المصدر السابق ، ص ١٦٩ .
 (١١٦) اوزتونا ، المصدر السابق ، ص ٥٦٣ .
 (١١٧) المصدر نفسه .
 (١١٨) دحلان ، الفتوحات الإسلامية ، ص ١٢٧ .
 (١١٩) أرسلان ، المصدر السابق ، ص ٢٣٧ .
 (١٢٠) اوزتونا ، المصدر السابق ، ص ٥٦٨ .
 (١٢١) العريض ، مفهوم الظلم ، ص ١٣٦ .

- (١٢٢) المحامي ، المصدر السابق ، ص ١٤٠ .
- (١٢٣) دحلان ، الفتوحات الإسلامية ، ص ص ١٢٧-١٢٨ .
- (١٢٤) اوزتونا ، المصدر السابق ، ص ٥٧٠ .
- (١٢٥) برجايوي ، المصدر السابق ، ص ١٧٢ .
- (١٢٦) سرهنك ، المصدر السابق ، ص ٦١١ .
- (127) Inalcik ,The Heyday..., p.352.
- وللمزيد عن السيطرة الروسية على أزوف ينظر:
- Basil Dmytryshyn , A History of Russia , (New Jersey,1977) , p. 251؛
- محمد مظفر الأدهمي ، دراسات في التاريخ الأوربي الحديث عصر النهضة . الثورة الفرنسية ، (الرباط، ١٩٨٤) ، ص ٨٠ .
- (١٢٨) سرهنك ، المصدر السابق ، ص ٦١١ .
- (١٢٩) ينظر : برجايوي ، المصدر السابق ، ص ١٧٧ ؛ أرسلان ، المصدر السابق ، ص ١٧٧ .
- (١٣٠) شاخت وبيزورث ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٩٤ .
- (١٣١) ينظر: لبيب ، تاريخ الأتراك ... ، ص ١٣١؛ فيشر ، أصول التاريخ الأوربي ، ص ٣٧٩ ؛ أرسلان ، المصدر السابق ، ص ٢٣٩ .
- (132) Par L. Farre , La Russie Et La Turquie , (Paris, N.d) , p. 338؛
- أرسلان ، المصدر السابق ، ص ٢٣٩ .
- (133) Shaw, History of the Ottoman... , p. 226;
- اوزتونا ، المصدر السابق ، ص ٥٨٦ .
- (١٣٤) أرسلان ، المصدر السابق ، ص ٢٤٠ .
- (135) Shaw , History of the Ottoman... , p. 226.
- (١٣٦) أرسلان ، المصدر السابق ، ص ٢٤٠ .
- (137) Yucel ve Sevim , A .G . E ., S . 241.
- (١٣٨) يعقوب سركيس ، مباحث عراقية في الجغرافية والتاريخ والآثار وخطط بغداد ، القسم ٢ ، (بغداد، ١٩٥٥) ، ص ٣٢٠ .
- (١٣٩) للمزيد عن نظام المالكانه ينظر: مراد ، تاريخ العراق ٠٠٠ ، ص ص ٣٠٣-٣٠٤ ؛ عماد الجواهري، تاريخ مشكلة الأراضي في العراق ١٩١٤-١٩٣٢ ، (بغداد ، ١٩٧٨) ، ص ٢٠ .
- (140)Yucel ve Sevim , A .G . E ., SS . 241-242.
- (141) A . E. SS. 241, 242.
- (142) Shaw , History of the Ottoman ... , p. 225.
- (١٤٣) سرهنك ، المصدر السابق ، ص ٦١٢ .
- (١٤٤) الأوجاق: كلمة تركية تعني الموقد ، وكانت تطلق على فرق الانكشارية . ينظر: جب وبون، المصدر السابق ، ص ٨٧ .
- (145) Yucel ve Sevim , A . G . E ., S . 242.
- (146) Shaw , History of the Ottoman... , p . 226 ; Levy , op . cit . p.231.

(147) Yucel ve Sevim , A . G . E . , S . 242.

(١٤٨) القادرغمة: سفينة مقاتلة من النوع المتوسط ذات مجاذيف ، وعادة يكون عدد البحارة في سفينة من هذا النوع (٣٠٠) بحار . ينظر: جب وبون ، المصدر السابق ، ص١٤٥ .
(١٤٩) اوزتونا ، المصدر السابق ، ص٥٨٦ .

(150) Yucel ve Sevim , A . G . E . , S . 243.

(١٥١) اوزتونا ، المصدر السابق ، ص٥٨٧ .

(152) Yucel ve Sevim , A . G . E . , S . 243.

(١٥٣) اوزتونا ، المصدر السابق ، ص٥٨٧ .

(١٥٤) المصدر نفسه ، ص ٥٨٦ .

(١٥٥) تولى المشيخة مرتين : الأولى في عام ١٦٨٨م ، والثانية بين ١٦٩٥-١٧٠٣م عزل بعدها وقتل . ينظر عنه شقيرات ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ص٥٧٣-٥٨١ .
(١٥٦) اوزتونا ، المصدر السابق ، ص٥٨٨ ؛ أرسلان ، المصدر السابق ، ص٢٤٠ .

(١٥٧) الصدفي ، المصدر السابق ، ص ص١٣٩-١٤٠ ؛ اوزتونا ، المصدر السابق ، ص٥٨٩ .

(١٥٨) الصدفي ، المصدر السابق ، ص١٤٠ .

(159) Levy, op . cit , p. 245.

(١٦٠) أرسلان ، المصدر السابق ، ص٢٤٢ . وللمزيد عن شخصية نعمان باشا كوبرلو ينظر: سامي ، المصدر السابق ، ج ٥ ، ص٣٩٠٩ .

(١٦١) كواترت ، المصدر السابق ، ص٨٣ .

(162) Stanford .J.Shaw , Between old and New : The Ottoman Empire Under Sultan Selim III 1789-1807, (Harvard University Press ,1971) , p.6.

(١٦٣) لبيب ، تاريخ المسألة الشرقية ، ص٣٧ .